

الأساليب البلاغية العربية وأثرها في فهم النص الخطابي النبوي دراسة بلاغية نقدية تحليلية

د. ياسر عبد المطلب أحمد - أستاذ مشارك⁽³⁾

د. مطر عبد الله إسحاق - أستاذ مساعد⁽⁴⁾

مستخلص الدراسة:

جدير بأساليب البلاغة العربية أن يكون لها الأثر الكبير في فهم النص الخطابي النبوي، إذ أن البلاغة بأساليبها المختلفة تمثل روح الأدب وقيّمته، فضلاً عن كونها أداة مهمة من أدوات النقد الأدبي العربي، إضافة إلى صلتها الحميمة بالدين؛ لأنها الأداة الكاشفة عن بلاغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. ولهذا تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أثر أساليب البلاغة العربية في فهم النصوص الخطابية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولا تتأتى معرفة جمال تلك النصوص وسرّ إبداعها إلا من خلال التحليل الأدبي الرفيع للأساليب البلاغية التي تحتويها تلك الخطب.

كما اهتمت الدراسة -أيضاً- بالجانب الفني، والجانب الجمالي للنص الخطابي النبوي الشريف حيث كشفت عن أسرار الجمال ودقة التعبير من خلال أساليب البلاغة التي تعمل على تصوير المعنى تصويراً يُفضي إلى توضيح المعاني، ويساعد على فهم النص الخطابي النبوي.

كما انتهت الدراسة بنتائج مهمة يمكن أجمالها في أن النصوص الخطابية النبوية اشتملت على العديد من الصور بيانية المستمدة من معين الإسلام الصافي، وكذلك اشتملت على صور من جوانب الحياة المختلفة، وهذا ما بينته هذه الدراسة في ثناياها.

³ - أستاذ البلاغة والنقد - رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية - جامعة إفريقيا العالمية.

⁴ - أستاذ النحو والصرف - بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية - جامعة إفريقيا العالمية .

Arab rhetorical methods and their impact on understanding the text of the Prophet's speech - A critical rhetorical Study.

Dr. Yasser Abdelmutallab Ahmed - Associate Professor (5)

Dr. Matar Abdallah Is`haq - Assistant Professor (6)

Abstract of the study

It is worthy of the methods of Arabic rhetoric to have a great impact on the understanding of the text of the prophetic speech, as the rhetoric in its different ways represent the spirit of literature and its value, as well as being an important tool of Arab literary criticism, in addition to its intimate link with religion; it is the tool revealing the eloquence of the Holy Qur`an, And the Prophet's Hadith.

The purpose of this study is to uncover the effect of Arabic rhetoric on understanding the texts of the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him). The knowledge of these texts and the secret of their creation is only derived from the literary analysis of the rhetorical methods contained in these speeches.

The study also focused on the artistic aspect and the aesthetic aspect of the Prophet's speech. It revealed the secrets of beauty and the accuracy of expression through the methods of eloquence which work to portray the meaning as a picture that leads to clarifying meanings and helps to understand the prophetic text.

The study also concluded with important results that can be summed up in the fact that the Prophet's texts included many graphic images derived from the pure Islam, as well as images of different aspects of life, as illustrated in this study.

⁵ - Lecturer of rhetoric and criticism – Head of the Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arabic Language, International University of Africa.

⁶ - Lecturer of Grammar and morphology, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arabic Language, International University of Africa.

مقدمة

الحمد لله حمداً توجبه سوابغ نعمه، أحمده، واستهديه، واستغفره، وأتوكل عليه، وأسأله أن يتجاوز عن تقصيري في حمده ومرضاته، ثم أصلي وأسلم على سيدنا وحبيبنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه، صلاةً وسلاماً أتمين دائمين إلى يوم التناد.

وبعد، فالخطابة من الفنون الأدبية التي توسع المدارك، وتفتق بالألسن فاستحقت بذلك مدارسها والإكثار من قراءتها، بل الغوص في بحرها واستخراج دررها، ولقد عني علماء اللغة وأدباؤها بهذا الفن الأدبي الراقي، ولا سيما خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد جمعوها وصنفوها واعتنوا بدراستها.

وما هذه الدراسة إلا واحدة من تلك الدراسات التي اعتنت بخطب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا أن دراسة الأساليب البلاغية في النصوص الخطابية النبوية من الدراسات التي لم أجد من الباحثين من أفرد لها دراسة خاصة، غير أن هناك إشارات عابرة احتوتها بعض البحوث التي تناولت الأحاديث النبوية الشريفة.

وأما هذه الدراسة فقد اعتنى فيها الباحثان بدراسة مفصلة عن الأساليب البلاغية التي اشتملت عليها النصوص الخطابية النبوية من خلال الشرح والتحليل النقدي والأدبي الذي كشف عن قوة التعبير النبوي، ودقة التصوير الذي كان له الأثر الكبير في فهم النص الخطابي النبوي.

وقد عالجت الدراسة هذا الموضوع في ثلاثة محاور رئيسة، فالمحور الأول كان فيه الحديث عن البلاغة العربية وعلاقتها بالنقد وقد بينت الدراسة العلاقة الوثيقة بين البلاغة والنقد وذلك خلال تتبع الباحثين لنشأة البلاغة العربية منذ العصر الجاهلي، وأما المحور الثاني فتناول الباحثان فيه التعريف بالخطابة ونشأتها وخصائصها، وكان المحور الثالث من هذه الدراسة دراسة الأساليب البلاغية في النص الخطابي النبوي وقد بينت الدراسة الأثر الكبير لأساليب البلاغة العربية في فهم النص الخطابي النبوي الشريف، وانتهت الدراسة بخاتمة توصل فيها الباحثان إلى جملة نتائج.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الدراسة كل من له اهتمام بخطابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المحور الأول: البلاغة العربية وعلاقتها بالنقد

ليست البلاغة حكراً على العرب فحسب، وإنما البلاغة فن تعرفه جميع الأمم فكل الشعوب والأمم لها بلاغتها ولها تعبيرها الفني الجميل، وقد تختلف مقاييس هذه البلاغة بين أمة وأخرى، وعصر وعصر، وجيل وجيل، ولكن تبقى هناك عناصر مشتركة بينها جميعاً، ومن هذه العناصر: الجمال، والذوق، والفن، والصدق، وصحة التعبير.

ففي البيان والتبيين للجاحظ إشارات إلى أن الأمم السابقة كانت تعرف البلاغة في فن قولها، يقول الجاحظ في باب حد البلاغة: "فقد قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: "معرفة الفصل من الوصل"، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: "تصحيح الأقسام واختيار الكلام"، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال: "حُسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة"، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: "وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة(4).

وقد امتزجت البلاغة العربية في بداية نشأتها بالنقد القديم، واستمر الحال إلى أن أخذ الأمر يسير بالتدرج نحو الانفصال التام بحيث يكون النقد متصلاً بالشعر والنثر ينظر إلى النص الأدبي فيميز حسنه من رديئه، وجيده من سقيمه، وأن تكون البلاغة مرتبطة بالقرآن الكريم تنظر إلى النص القرآني لتبين وجوه الإعجاز فيه. وبهذا عاشت الدراسات البلاغية في حضان الدراسات القرآنية، يقول أبو هلال العسكري مبيناً علاقة البلاغة بالتفسير وأثرها في بيان الإعجاز القرآني: "وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله"(12).

وهكذا كان ارتباط البلاغة بالقرآن الكريم متين الحبل وثيق العروة حيث قدمت له خدمة جليلة تمخضت أن أبرزت ما فيه من وجوه الجمال الفني، وأوضحت سرّ الإعجاز فيه وذلك من خلال البحث في أسلوبه وطريقة

أدائه للمعاني، فتنافس المتنافسون في التأليف البلاغي المرتبط ببيان إعجاز القرآن، وكان عمرو بن بحر الجاحظ(255هـ) أول من ألف في إعجاز القرآن.

وشهد أواخر القرنين الرابع والخامس الهجريين تطوراً ملحوظاً في ميدان الدراسات البلاغية التي اختصت بالبحث في مجال الإعجاز القرآني، حيث أفرد العلماء في هذين القرنين رسائل ومصنفات مستقلة للنظر في قضية الإعجاز، ويعدُّ الواسطي(ت3.6هـ) من أوائل من شرع للعلماء الحديث في هذا الموضوع، ثم تتابعت المؤلفات في هذا القرن وبداية القرن الخامس حيث ألف القاضي عبد الجبار(ت415هـ) كتابه(إعجاز القرآن) حيث ذكر وجوهاً لإعجاز القرآن.

ثم عادت البلاغة-مرة أخرى- لتعانق النقد، وذلك في نهاية القرن الرابع الهجري، حيث برز في هذا العصر أصحاب الموازنات بين الشعراء كالأمدي أبي القاسم الحسن بن بشر المتوفى سنة(37هـ) صاحب كتاب(الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري)، وكالقاضي الجرجاني المتوفى سنة(392هـ) صاحب كتاب(الوساطة بين المتنبى وخصومه)، وهما أديبان بلاغيان ناقدان، تناول الأول في موازنته بحثاً من صميم البلاغة اقتضتها المفاضلة، حيث أحصى عدداً من الاستعارات القبيحة لدي أبي تمام تناولها النقاد من بعده، وأفردوا لها أبواباً في كتبهم، كإحسان عباس في كتابه(تاريخ النقد الأدبي)، حيث أفرد صفحات كثيرات لقبيح استعارات أبي تمام تحت عنوان:(حملة الأمدي على استعارات أبي تمام)(2)، ومن قبيح استعارات أبي تمام قوله:

يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَعْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرْقِكَ

وذلك لورود الأخدعين مثناة حيث تجد فيها النقل على النفس، كما أورد الأمدي أمثلة مما أساء فيه أبو تمام من قبيح الجناس، وذلك نحو قوله:

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلام سلمى، ومهما أورق السلم

يعلق الآمدي: " فهذا كله تجنيسٌ في غاية الشناعة والركاكة والهجانة" (1)، ولأبي تمام من هذا الجنس المتكلف أبيات كثيرة؛ والسبب في ذلك أنه أحب الإكثار ولم يقنع باليسير الذي يسمح به خاطره، ويقع بغير تكلف ولا تعمل.

وقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوي ولكنها مع ذلك سقيمة التراكيب صعبة الفهم، لا ترضي الذوق، فلا تكون عندئذ بليغة؛ لأن البلاغة تستلزم أموراً منها: مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطبين، وجريان الكلام على القواعد النحوية والصرفية، ثم البحث عن جمال العبارة، وتأنق الألفاظ وملائمتها لأذواق المخاطبين وعقولهم، ومن أمثلة ما كان صحيح العبارة النحوية سقيم التركيب قول المتنبي:

وشيخٌ في الشباب وليس شيخاً يُسمَى كلُّ من بلغ المشيباً (7)

إن ترتيب البيت الطبيعي على النحو الآتي: "هو شيخ في الشباب، وليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخاً"، فالبيت على الرغم من استقامته النحوية، ومطابقته لقواعد الإعراب إلا أنها لا تكفي لتحقيق البلاغة ما دام التقديم والتأخير قد مزق أوصال العبارة كما تلاحظ.

وهكذا أصبحت البلاغة أهم أدوات الناقد في حكمه على العمل الأدبي حيث تُعنى بالصياغة الفنية، وسلامة الجملة من العيوب، ومطابقتها لمقتضى الحال، فأخذ النقاد ينظرون إلى أعمال الشعراء فيعيبون عليهم قبيح استعاراتهم، وسوء استخدامهم للجناس، وعدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وعدم سلامة المفردة أو الجملة من العيوب إلى غير ذلك مما رصدته كتب النقد عن الشعراء.

المحور الثاني: الخطابة تعريفها ونشأتها وخصائصها

الخطابة لون من ألوان الكلمة وشكل من أشكال التعبير، لها ما يميزها عن غيرها من ألوان الكلمة المكتوبة أو المسموعة. وهي نوع من النثر وتختلف عن الشعر؛ لأن الشعر كلام موزون ومقفى، يقوم على الخيال والمبالغة والعاطفة. فإذا تناول الشاعر موضوعاً، جنح فيه إلى الخيال والعاطفة بأسلوب تشيع فيه الرقة والموسيقى والقافية.

أما الخطابة فإنها تتناول المسائل الجادة والواقعية، وتقوم على الحقائق الملموسة وتجنح إلى استعمال الدليل والاستعانة بالحجة والمنطق كعناصر أساسية فيها. كما أن الخطبة غايتها الإقناع والاستمالة والانقياد لفكرة الخطيب التي يدعو إليها.

وجاء في تعريفها في المصباح المنير: "الخطابة مصدر الفعل: حَطَبَ يَحْطُبُ، من باب قتل، يتعدى بنفسه وبحرف الجر ... ويقال في الموعظة: خطب القوم، وألقى عليهم حُطبة بالضم وهي فُعلة، وجمعها حُطَب (مثل عُرفة وعُرف) فهو خطيب، والجمع خطباء، وخطيب القوم هو المتكلم عنهم. وأما حُطبة بكسر الخاء: فهي طلب المرأة للزواج، والرجل خاطب وخطَّاب مبالغة فيه. والخطاب: الكلام(15).

وفي اللسان: "خطب الخاطب على المنبر يخطب خطاباً، واسم الكلام الخطبة، وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب؛ الكلام المنثور المسجوع، والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر"(18).

أما الخطابة في الاصطلاح فهي: "فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته"(8). فلا بد من جمهور وإلا كان الكلام حديثاً أو وصية، ثم لا بد من الاستمالة والمراد بها "أن يُهَيِّج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها، ويقبض على زمام عواطفهم، يتصرف بها ما يشاء، ساراً أو مُحزناً، مضحكاً أو مبكياً، داعياً إلى المقاومة والجهاد أو إلى السكينة"(14). وعرفها الجرجاني بقوله: "الخطابة الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعاً من الناس لإقناعهم"(13).

وعرف أرسطو الخطابة بقوله هي: "القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل"(3). ومن المحدثين من عرفها بقوله: "أصول وقواعد تُرشد الإنسان إلى فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة"(17). ومن خلال استنتاج هذه التعريفات بشيء من التوضيح تبرز أمامنا النقاط الآتية:

1- إن مخاطبة الجماهير لإقناعهم واستمالتهم فن يعتمد على الدراسة والتجربة والدراية بأحوال الأمم والأفراد، ورغبات الجماعات والشعوب واتجاهات الناس وميولهم ومواقفهم، ومعرفة الأحداث والوقائع والبيئات والدراية بالعبادات والتقاليد والقيم والمعتقدات، إلى غير ذلك.

كل هذا الذي تقدم يلزمه لمسة الخطيب البارعة في استغلاله فيما يريد وتوجيهه إلى ما يخدم فكرته وهدفه المراد. وهذا هو الفن المطلوب استخدامه والبراعة فيه، مؤيداً كل ذلك بالحجج والبراهين والأدلة على صدق دعواه فيما يقصد ويريد.

2- لا بد في الخطابة من الجمهور الذي يقصده الخطيب ويريد إقناعه بما يريد، ودون الجمهور لا خطيب ولا خطبة. فمن يحدث فرداً لا يسمى خطيباً، ولا تسمى تلك المحادثة خطبة.

3- تكون الخطابة بطريقة إقائية، ومعنى هذا أن يكون الخطيب على هيئة معينة في الحديث من جهارة الصوت وتكليفه باختلاف نبراته وتجسيم المعاني واتباع الأساليب البلاغية والإقناعية.

4- أن يكون الكلام مقنعاً فيشتمل على حجج وبراهين وأدلة يستطيع بها الخطيب أن يبرهن على صحة دعواه وصواب ما يريد.

وأما بالنسبة لنشأة الخطابة فيرى بعض الباحثين أن تدوين علم الخطابة يرجع إلى اليونان في عصر بيركليس، فيقولون: "إن أول من دون علم الخطابة وجعل له أصولاً وقواعد هم اليونان؛ وذلك لأن أهل أثينا في عصر بيركليس، قويت فيهم الرغبة إلى القول واشتدت فيهم دواعيه، فأغرم الناس بالفصاحة وحب الكلمة وحسن الإلقاء.. ثم جاء أرسطو فجمع قواعد علم الخطابة، وضم شوارده وأودع ذلك في كتاب سماه (الخطابة) فاتخذه الناس أصلاً لهذا العلم ومرجعاً يرجعون إليه" (17).

ولقد عرف العرب الخطابة قبل الإسلام بزمن طويل (17)، وكان لها شأن عظيم، وذلك لأن الحياة العامة في هذا العصر تستدعي وجود هذا الفن، فالحياة القبلية وما تستتبعه من منازعات وخصومات وحروب، وما تؤدي إليه هذه الحروب أحياناً من محاولات لإصلاح ذات البين ونشر السلم بين القبائل

المتنازعة، واضطراب الحياة الاجتماعية في ذلك العصر وما كانت تفرضه على العرب من صلات سلمية أو حربية بالأُمم المجاورة لهم، وصلات أفراد المجتمع القبلي بعضهم ببعض، من تزواج وتعامل وتناظر وتفاخر، وما فطر عليه العرب من فصاحة ولسن وحضور بديهة، كل ذلك حمل البدوي على الخطابة لإيصال الآراء إلى الناس، والدعوة إلى التجمع لصد كل عادٍ أو مهاجمة عدو، وبعث الحماسة والشجاعة في النفوس، وإظهار المفاخر، وتعداد محاسن الأحلاف، أو مساوئ الأعداء، وإخماد نيران الفتن، ورد كل سيف إلى غمده، وحقن الدماء ونشر راية السلام واستقبال الضيوف، والمطالبة بحقوق الإخوان.

وهكذا كانت الخطابة في الجاهلية شديدة الانتشار ولها المحل المرموق. فالخطيب مثله مثل الشاعر كان لسان قومه، يذود عن الحياض وينشر الأمجاد. فالعرب شديداً الميل إلى سماع الشعر أو الخطب مما زاد الخطباء تشجيعاً وحثهم على تخير الألفاظ المألوفة الرقيقة المعاني. فمن خطبهم: الطوال والقصار، وأكثر عدداً وأفضل لسهوله حفظها. ولشدة عنايتهم بالخطب كانوا يتوارثونها ويتناقلونها في الأعقاب.

وللخطابة خصائص (17) تشترك فيها كل أنواع الخطب من وعظية واجتماعية إلى غير ذلك نذكر

منها:

1- تعتمد الخطابة على عناصر ثلاثة تكون لها تلك العناصر كالينابيع التي تمدها بماء الحياة وري البقاء. أولها المنطق والحجة. وثانيها أقوال الحكماء والحوادث المنقولة عن ثقة والأخبار المروية عن حكيم أو عظيم مصدق عند الناس. وثالثها صنعة الخطيب الذي يمزج كل هذا بصورة من براعة الفنان وعاطفة الإنسان وخيال الشاعر.

2- قد يستعمل الأسلوب القصصي فيستعين الخطيب بقصة قصيرة أو حدث تاريخي للاستشهاد به على ما يقول، وهذا يعتمد بالدرجة الأولى على نوع القصة ومناسبتها وموقعها وقصرها. فالقصص الذي يقع موقعه تكثر إفادته بشرط أن لا تكون طويلة تذهب بذهن السامع عن الغرض الأصلي للخطبة.

3-الخطبة أقدر من الشعر على الإقناع، لأنها لا تعتمد على تكلف القوافي أو الأوزان، وتستطيع أن توضح كل جوانب الموضوع بغير تكلف وأن تمزج الأحاسيس بغير عناء، وأن تدخل القصة والمثل والحكمة في ثناياها بغير أن يختل المعنى، كما تستطيع الخطبة أن تستوعب النصوص بغير تبديل ولا تغيير أو تحريف، وهي مع ذلك تتمتع بجزالة اللفظ وحسن التعبير وبرد العاطفة.

المحور الثالث: الأساليب البلاغية في النص الخطابي النبوي

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الإسلام رونقاً وبلاغةً وارتقاءً، ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء، لحاجة المسلمين إليها في الفتوحات والغزوات، خصوصاً أنه لم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها، كما ورد في الشعر والشعراء، كقول تعالى: { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } سورة الشعراء. الآيات (224 - 226).، يقول الجاحظ: " فأصبح الخطيب في الإسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم إلى الخطابة في استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وإرهاب الأعداء" (4).

ومن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم التي يُذكَرُ فيها أصحابه بالموت تلك التي يقول فيها: «أيها الناس إنه والله الجد لا اللعب، الصدق لا الكذب،... أما رأيتم الذين كانوا يؤملون بعيداً ويبنون مشيداً ويجمعون كثيراً، كيف أصبحت بيوتهم قبوراً...»(19).

ففي قوله صلى الله عليه وسلم(بيوتهم قبوراً) تشبيهه بليغ ، حيث صور حال تلك البيوت التي كانت تحفها السعادة، ويحيطها الأمل، وتكسوها الخضرة بسبب النعيم الذي كان يغمر أهلها، ثم فراقهم عن تلك البيوت وابتعادهم عن هاتيك القصور بسبب المنية التي عاجلتهم، فقد صور صلى الله عليه وسلم حال تلك البيوت بالقبور حيث الظلام الدامس، والكآبة المخيمة، والبؤس، والكرب، والحزن وقل مثل ذلك ما شئت...

وتشبيه البيوت بالقبور ورد أيضاً في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يؤكد فيه على أهمية الصلاة ودورها في بث الحياة الكريمة للإنسان حيث يقول : «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً»⁽¹⁶⁾، فقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم أن البيت الذي لا يصلي فيه أحد كالقبر، لا تجد فيه الحياة الحقيقية الكريمة، بل أنه موحش مغرق في الوحشة، فالتشبيه هنا يحمل معنى التقييح، والتغير للبيوت كما يحمل معنى التوبيخ، والتقصير لمن يكون صاحبها وساكنها.

ومن الصور التشبيهية التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه، قوله في الأخذ بالحزم: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك في الموتى ، وإذا أصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء، وإذا أمست فلا تحدثها بالصباح، وخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لوفاتك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً"⁽¹⁹⁾.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم (كأنك غريب)، تشبيه مرسل مجمل، أما أنه مرسل؛ فلأن أداة التشبيه وهي (كأن) مذكورة، وأداة التشبيه (كأن) من الأدوات التشبيهية التي تعزز حالة التوحد بين المشبه والمشبه به، وأما أنه مجمل فلأن وجه الشبه غير مذكور والتقدير (كن كالغريب في عدم الاستقرار والتفكير بالمكث وطول الإقامة).

والغريب وعابر السبيل لا يتعلقان في دار الغربة بما يتقلهما عن السفر، حال يعرفها كل الناس؛ لأنها من المقرر المحس، والمقرر المعلوم، والرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من أصحابه أن يكونوا في الدنيا شبيهين بالغريب أو عابر السبيل في عدم التعلق بما يتقلهم من متاعها الخادع؛ لأن الدنيا زاهية فانية لا قرار فيها.

ومن الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الاستعارة، حيث ورد كثيراً في خطبه صلى الله عليه وسلم، حيث بدأت الاستعارة وسيلة بيانية مهمة في تجسيد الأفكار

وتشخيصها، وإيضاح المعاني، والتعبير عنها بشكل فني جمالي متميز، ولا عجب في ذلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم، أفصح العرب وأبلغ من نطق بالضاد، وحق لمن كان منتدباً لبيان القرآن الكريم، وتفصيل مجمله وإيضاح موجزه ومشكله، أن يكون بيانه في مستوى رفيع يليق ببيان القرآن الكريم، وبلاغته الرفيعة المعجزة. يقول صلى الله عليه وسلم في خطبة له يحث فيها أصحابه على الوحدة بين المسلمين وينبذ فيها الفرقة: ((فإن من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربة الإسلام من عنقه حتى يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو في جهنم)) (19).

وفي الحديث الشريف: "من خالف الجماعة فقد خلع ربة الإسلام من عنقه"، ففي قوله صلى الله عليه وسلم (ربة)، استعارة تصريحية وذلك؛ لأنه شبه تعاليم الإسلام، وأوامره، ونواهيه، ولزومها للمسلم، بريقة الدابة التي تربط الدابة فتمنعها من الفرار، كما تمنع تعاليم الإسلام المسلم من الخروج عليها، بجامع المنع من الضرر في كل منهما، فحذف المشبه وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، ولما كان اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة جامداً كانت الاستعارة أصلية، وهي استعارة ما هو محسوس إلى ما هو معقول لا يدرك بالحس.

يقول الشريف الرضي عن هذه الصورة الاستعارية: ((وهذه الاستعارة كما يتضح استعارة المحسوس للمعقول، فشبه صلى الله عليه وسلم تعاليم الإسلام من أوامر ونواه، وهي من الأمور المعقولة بما يقع تحت مشاهدة المسلم اليومية، فشبهها بريقة الدابة، وهذا مما يألفه المسلم ويستوعبه كامل الاستيعاب، فيزيد من قوة تمسكه بالإسلام، وتعاليمه؛ لأن الخروج عنها يمثل لديه انفلاتاً واضحاً نتيجة لهذه الصورة المحسوسة الماثلة أمامه)).

ومن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم التي يحث فيها على التحلي بالنقوى، وإتباع السنة وترك البدع يقول: ((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي . وإنه من يعش منكم

فسيرى اختلافا كثيرا, فعليكم بسنتي وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين , عضوا عليها بالنواجذ , وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(19).

ففي قوله صلى الله عليه وسلم(عضوا عليها بالنواجذ) استعارة تبعية، وفي الحديث الشريف«عليكم بسنتي وسنة المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»، حيث شبه التمسك الشديد بالسنة، بالعض على الشيء بالنواجذ بجامع الإمساك الشديد في كل منهما، واستعير العض للتمسك بقوة، واشتق من العض بمعنى التمسك عضوا بمعنى تمسكوا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. ومن الأساليب البلاغية في الخطب النبوية الكناية حيث يقول صلى الله عليه وسلم في خطب له يحث فيها على الجهاد: « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلل السيوف»(19).

ففي الخطبة كنايةان الأولى في قوله(لا تتمنوا لقاء العدو)، فهو كناية عن حب السلم والسلام والابتعاد عن الشر جملة وتفصيلاً، والثانية في قوله (الجنة تحت ظلل السيوف) فهذه الصورة الرائعة تفيد أن المجاهدين عندما يجتمع بعضهم إلى بعض صفاً متراصاً، والسيوف بأيديهم أصبحت كأنها تظل الضاربين بها المعرضين للشهادة، فالجنة هناك تحت تلك الظلال، وفي رواية أخرى يقول صلى الله عليه وسلم: « إن أبواب الجنة تحت ظلل السيوف»(16).

وبهذا تبدو الغاية المبتغاة من هذا التصوير وهي نداء للراغبين في الجنة، أن يجتمعوا عند بابها وهو(الجهاد في سبيل الله)، فمن أراد الجنة فعليه أن يجاهد؛ لأن باب الجنة تحت ظلل السيوف، وهذا المعنى يعضده قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ . سورة آل عمران الآية (142).

فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله المقرونة بأفعاله يحاول أن يرسم للناس منهج حياتهم موضعاً سبل العيش الكريم في هذه الحياة الدنيا، ليستقيموا فتحسن عاقبتهم، ويحظوا بالجنة التي وعد الله بها المتقين من عباده.

ومن أقوله صلى الله عليه وسلم التي يحث فيها على الصدقة وتشتمل على الكناية ما جاء في خطبته التي يقول فيها: «أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم.. وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى»(16).

يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى» شرف المسلم وعزته وسيادته؛ لأن الإسلام يكره السؤال ويأباه وينفر منه، ويفضل اليد التي تنفق على اليد التي تسأل، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن أغناه الله، وفي هذه الخطبة، فقد كنى (باليد العليا) عن المعطية، (وباليد السفلى) عن المستعطية.

وذهب الشريف الرضي إلى الإشارة إلى ما في قوله صلى الله عليه وسلم من كناية فقال: «وإنما كنى صلى الله عليه وسلم عن هاتين الحالتين باليدين، لأنهما الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل، وبهما القبض والأخذ»(16).

وفي سياق ذاته يقول صلى الله عليه وسلم لأزواجه مشجعاً على التصدق وكثرة العطاء «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً»(16)، يريد كثرة العطايا، فالرسول صلى الله عليه وسلم كنى عن هذا المعنى بـ(طول اليد)، لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرشد والبر أن يعطيه ذلك بيده فسمي النيل، وقال النووي: «قال أهل اللغة: يقال فلان "طويل اليد، طويل الباع" أنه كان سمحاً جواداً، وضده قصير الباع واليد»(16)، ولقد دل الحديث على أن الصدقة مزية بشر بها النبي صلى الله عليه وسلم صاحبها بها، وهذه الميزة هي أن تكون أسرع زوجاته لحاقاً به، في الموت، أي أول من تموت منهن بعد وفاته.

وهذا الحديث من الأحاديث التي اهتم بها المتقدمون من حيث بلاغته، فقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أنه تلويح يريد منه الرسول صلى الله عليه وسلم السخاء، والجود، وبسط اليد بالبذل(5).

ومن جانب آخر فقد كثرت كذلك الأساليب البديعية في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ففي خطبته يوم عرفة المعروفة بخطبة الوداع، يقول صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله

وأثنى عليه: " من يهد الله فلا مضل له, ومن يضل فلا هادي له... أيها الناس: إن ربكم واحد, كلكم لآدم, وآدم من تراب, أكرمكم عند الله أتقاكم, وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى... " ويقول فيها أيضاً: "إن لنسائكم عليكم حقاً, ولكم عليهن حقٌ..."(6).

يريد الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يُبين في هذه الجزئية من الخطبة أن الله -جلّ في علاه- هو وحده الهادي الذي يخرج الناس من الضلالة العمياء إلى نور الهدى الساطع وذلك من خلال قوله صلى الله عليه وسلم: " من يهد الله فلا مضل له, ومن يضل فلا هادي له"; فهنا أساليب بديعية رائعة تتمثل في المطابقة الحقيقية بين الفعل (يهدي) والاسم (مضل), وكذلك بين الفعل (يضلل) والاسم (هادي), وإعادة اللفظين معكوسين في الجزء الآخر من الجملة أنشأت صورة بديعية أخرى تسمى (العكس), وكذلك هناك مقابلة بين اللفظين (يهدي ومضل) يقابلهما على الترتيب (يضل وهادي), فهذا الاقتران زاد المعنى وضوحاً ورونقاً وبذلك غدت المطابقة مرشحة, لتوافر عدد من الأساليب البديعية في مقطع واحد.

ثم بيّن صلى الله عليه وسلم أن الناس متساوون عند ربه عز وجل .. لا يفضل أبيض على أسود, ولا لغني على فقير, ولا لعربي على عجمي وذلك؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لم يفرق بينهم في الخلق فجميعهم من آدم وآدم من تراب { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } سورة آل عمران, الآية (59), فليس لبني آدم فضل عند الله إلا بالتقوى والإيمان.

وبعد أن خلص صلى الله عليه وسلم من تذكير الناس بأصل تكوينهم وخلقهم, عاد ليقرر حقائق أخرى في سياق متسلسل ومرتبب ببعضه ومتناسق فيما بينه وذلك من خلال استخدامه اللون البديعي في المقابلة الحقيقية الرائعة بين الاسمين (عربي وعجمي) في قوله: "أكرمكم عند الله أتقاكم, وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى...", وجاء استخدام أسلوب التفضيل في هذا التعبير النبوي (أكرم وأتقى) للدلالة على كمال الشيء وتمامه وعُلُوّه ورفعته.

وقد عكست المطابقة الحقيقية والتضاد التام بين اللفظين (عربي وعجمي) معنى الإخاء والمودة بين أبناء البشر.. إذ لا علو ولا كبرياء ولا تفاضل بين أبناء آدم جميعهم بل هي مساواة وتكافؤ, وإنما تعلق المنازل وترتقي أمام الخالق بالتقوى والإيمان, والطاعة, والاستقامة.

كما نجد مطابقة حقيقية أخرى بين حرفين هما: (عليكم ولكم) من قوله (إن لنسائكم عليكم حقاً), وقوله (لكم عليهن حقاً), وهو طباق حقيقي أيضاً لأنه جمع بين حرفين متضادين في

المعنى، ف(على) مع كاف الخطاب وميم الجمع تحمل في طياتها الحقوق والمواثيق التي بينتها الشريعة للرجل تجاه من يعول من الزوجات؛ من مَأْكَل، وملبس، ومسكن، وحسن معاملة، وطيب معايشة، إلى غير ذلك من الأعمال السامية والأفعال النبيلة التي تجعل الأسرة في إلفة ومودة.

أما (اللام)، فهي الأخرى مشحونة بكل ما على الزوجة من واجبات تجاه زوجها وقد بينها صلى الله عليه وسلم في خطبته وهي: "أَلَا يُوطِئُنْ فَرْشَكُمْ غَيْرَكُمْ، وَلَا يُدْخِلُنْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بِيُوتِكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ، وَلَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ، فَإِنْ فَعَلَنْ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ..."(1)، فإذا أعطى كل ذي حق حقه قامت الأسرة على أسس ثابتة وقواعد متينة، فانتفعت بذلك البرية وصلحت الذرية وعمّ المجتمع الخير والنفع. وجاء في خطبة له صلى الله عليه وسلم يبين فيها مراتب خلق بني آدم، فيقول: "أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خَلَقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَى: مِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا..."(6).

الشاهد البديعي هو أن هذه الجزئية من الخطبة استوفت جميع الأقسام التي يكون عليها الإنسان، فأقسام العبد لا تخلو من واحد من هذه الأقسام الأربعة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم:

- 1- أن يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً.
- 2- أن يولد كافرًا ويحيا كافرًا ويموت كافرًا.
- 3- أن يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافرًا.
- 4- أن يولد كافرًا ويحيا كافرًا ويموت مؤمناً.

وهذا النوع كثير في الكلام، وهو يدل على حسن اتساق الكلام، وترابط أجزائه، وائتلاف الألفاظ مع المعاني، كما أنه من استيفاء معاني الشيء والإحاطة بها إحاطة كاملة، أو إحاطة بأبرز ما يتميز بها.

ونلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ هذه الأقسام بالإيمان وذلك؛ لأن الأصل في بني آدم أن يكونوا مؤمنين بالله موحدين له تعالى؛ وذلك بموجب العهد والميثاق الذي اتخذوه مع ، قبل خروجهم إلى عالم المشهود، لربهم جل وعلا في سابق الأزل وهم في صلب أبيهم آدم **وَإِذْ [مِيثَاقًا وَعَهْدًا شَهِدُوا وَاقْرَأُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بُوْحْدَانِيَّتَهُ وَأَلُوْهِتَهُ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى:**

أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى
سورة الأعراف، ص(172). [شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم منفراً عن الدنيا، فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس.. إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء. ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي" (19).

في هذه الخطبة يحدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الدنيا محقراً من شأنها ومزهداً فيها؛ حتى لا يشغل الناس بها عن الآخرة التي هي دار القرار، قال تعالى: [وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ] سورة آل عمران، الآية(185).، وقال صلى الله عليه وسلم: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" (6)، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحذرننا أن نركن إلى الدنيا أو نتخذها وطناً فيجب على المسلم الفطن ألا يحدث نفسه بطول البقاء فيها، ولا يشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله.

وقد استخدم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لإيصال هذه الفكرة إلى قلوب الناس، أساليب بديعية متعددة تتم عن قدرته الفائقة على امتلاك زمام الألفاظ والمعاني، فتجري على لسانه مجرى الماء الزلال على الجداول ولم يسمع الناس بعد -القرآن الكريم- بكلام أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً من كلامه صلى الله عليه وسلم.

ولا غرو في ذلك فقد أُعْطِيَ جوامع الكلم، فالكلام الذي قلَّتْ حرفه وكثرتْ معانيه، وجلَّ عن الصنعة، وتنزه عن التكلف، ولم يُنطق عن الهوى لابد أن يقع في القلب موقعاً حسناً، وها هي جملة من الألوان البديعية التي حفلت بها تلك الجزئية من خطبته صلى الله عليه وسلم.

كما يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الجملة: "إن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي"، أي أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الدنيا لتكون دار عمل وطلب وجد، يبتلي فيها العباد على قدر إيمانهم وصبرهم على ما يصيبهم فيها من مكروه، وأن الآخرة هي دار مثوبة وجزاء لتلك الأعمال [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] . سورة الزلزلة، الآية(7-8).

أما الشاهد البلاغي؛ فقد أوقع الخطيب تبايناً بين الدارين: (دار الدنيا ودار الآخرة)؛ إذ هما من جنس واحد هو (مطلق الدار) فهذه دار وتلك دار، ثم فرق بينهما في المنزلة والمكانة

بجعل دار الدنيا- وهي دون الآخرة- دار عمل وابتلاء، لم يسلم من ذلك البلاء حتى الأنبياء والرسول والصالحين من عباده، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" (6)، وجعل دار الآخرة دار عقبي (أي جزاء) (18) وهي مفضلة على الدنيا، كما قال تعالى: [وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى] سورة الأعلى، الآية (17).
 وأساس الجمال في هذا الفن أنه يُعرّف المتلقي بوجه الاختلاف والتباين بين شيئين جمعها في حكم واحد يحسب أنهما متفان متآلفان، وهو يدل في الوقت ذاته على براعة القائل في تلمس عنصر الاختلاف بينهما، ثم تقديم البرهان على ذلك.

ويمكن أن نجري المثال السابق: "إن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي" على أنه من قبيل (الجمع مع التفريق) بقراءة أخرى، وذلك على النحو الآتي:
 جمع صلى الله عليه وسلم بين أمرين هما (الدنيا والآخرة) في حكم واحد هو كونهما من مخلوقات الله - جلّ وعلا- فالدنيا مخلوق والآخرة مخلوق أيضاً، ثم فرق بينهما في الاتصاف؛ فجعل الدنيا دار ابتلاء وجعل الآخرة دار جزاء.

ومن الأساليب البديعية في الخطب النبوية المذهب الكلامي، ومن أمثلة هذا اللون البديعي، قول الرسول صلى الله عليه وسلم في أول خطبة خطبها بمكة حين دعاه قومه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتُكم ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتُكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة..." (9).

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين لقومه أنه الرسول المرسل من عند الله تعالى لينقذهم والناس أجمعين من الجهالة العمياء إلى نور الإسلام وهدى الإيمان، وعلى الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد عُرف بالصدق والأمانة وحسن الخلق من قِبَلِ بعثته إلا أن قومه كَذَلِكِ { رموه بالكذب، ووصفوه بالسحر والجنون بعد أن بعثه الله إليهم بشيراً ونذيراً، قال تعالى: سورة الذاريات، الآية (52).. } { مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } وفي هذه الجزئية من الخطبة يدعو صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإيمان والإسلام، وأن ما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى صدق وحق، وقد أعتد صلى الله عليه وسلم على إقامة الحجة والبرهان للاستدلال على صدقه وصحة رسالته.

يقول: "إن الرائد لا يكذب أهله" فهو هنا يفحم قومه بالحجة المنطقية والدليل العقلي عن طريق القياس؛ فكما أن الرجل الذي يأتكم بخبر الماء والكأ يصدقكم الحديث ولا يكذبكم، ولا يخونكم، وأنتم تصدقونه على ما يقول، فأنا كذلك أصدقكم بأني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة وما جئتُ به هو قرآن من عند الله لا حديث يفترى.

ويبين صلى الله عليه وسلم إلى قومه أنه لو كان كاذباً أو مغروراً معروفاً بالكذب والغرور للناس أجمعين (وحاشا أن يكون كذلك) ما كان له أن يغرّ أو يكذب على قومه وعشيرته وأهله، فلما لم يكن هو كذلك إذن فهو رسول من الله تعالى مُبلغاً وداعياً إلى وحدانيته وليس للمكابرين والمعاندين دليل ولا برهان.

وكثيراً ما يستخدم الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذا الأسلوب البديعي لإقناع قومه بصدق رسالته يقول في جمع من قريش: "يا معشر قريش! لو قلتُ لكم أن خيلاً تطلع عليكم من وراء هذا الجبل أنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم، قال: أني لكم نذير بين يدي عذاب عظيم" (16).

وفي أول خطبة خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: "أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزي الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.." (9).

تحمل هذه الخطبة الكثير من الدلالات والمعاني التي تختبئ وراء عباراتها وألفاظها، فالرسول صلى الله عليه وسلم يصور لنا في هذه الجزئية من الخطبة مشهداً من مشاهد يوم القيامة عندما يقف العبد أمام خالقه سبحانه وتعالى وليس بينهما حاجب ولا ترجمان، فيسأله الله عن نعمه التي أنعمه إياها في الدنيا، وليس هناك مجالاً للكذب والافتراء على الله، فالصحائف عن اليمين وعن الشمال كما أن الجوارح تشهد وتتكلم بصنيع صاحبها، كما جاء في قوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، سورة يس، الآية (65).

فهذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اقترفوا من الذنوب والآثام في الدنيا، ويحلفون أنهم ما فعلوها، فيختم الله على أفواههم ويستنتطق جوارحهم بما عملت. أما الشاهد البلاغي؛ ففي قوله: " ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟"، حيث اشتمل الشاهد البلاغي على استفهامين: أما الاستفهام الأول: ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فالغرض من الاستفهام هو التقرير؛ لأن السائل (المستفهم) هو الله سبحانه وتعالى وهو عالم بالمستفهم عنه، إذ إنه هو الذي أرسل الرسل جميعاً للناس كافة مبلغين رسالات ربهم، كما أنه هو وحده الذي يصدق على عباده بنعمه التترا وآلائه العظيمة.

وأما الاستفهام الآخر: فما قدمت لنفسك؟ فالاستفهام هنا جاء بغرض التعجب؛ لأن الله جل في علاه يستفهم متعجباً من ابن آدم على ما قدمه في حياته، من أعمال طيبات يرجو ثوابها منه سبحانه وتعالى، وهو أيضاً من قبيل التقرير؛ لأن الله يعلم ما قدم الإنسان في حياته وهو مطلع على كل أعماله وأفعاله صغيرها وكبيرها، سرّها وعلانياتها.

وفي الخطبة يحثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الصدقة، فيقول (فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل)، وفي الحديث الشريف (اتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) (11)، وفي حديث آخر (لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة) (16)، وأشار بذلك إلى المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرس لأنه لم يجر العادة باهدائه، وإنما على سبيل المبالغة، ويحتمل أن يكون النهي إنما وقع للمهدى إليها وأنها لا تحتقر ما يهدى إليها ولو كان قليلاً (11).

وهكذا فقد امتازت خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعداد المسبق، وتخير الألفاظ والجمل والمعاني، وكانت أحاديثه صلى الله عليه وسلم تشهد على حسن اختيار ألفاظه وصياغة عباراته؛ ليصبح كلامه حسن الموقع، عذب الإيقاع.

كما تأثرت الخطابة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم أسلوباً وصياغة، وأفكاراً ومعاني، وصوراً وأخيلة، لذلك انكب الخطباء على التفقه بالمعاني القرآنية، والتتقف بثقافة الإسلام، وهذا ما يفسر ندرتها بين الأعراب الجفاة الذين لم يستوعبوا ثقافة الإسلام.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات, والصلاة على أفضل العباد نبينا, ورسولنا, وحبينا, وقدوتنا, وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وبعد, فالمتأمل في النصوص الخطابية للنبي - صلى الله عليه وسلم - يجدها مليئة بالأساليب البلاغية ذات الإيحاءات والدلالات العميقة, فقد استطاع - صلى الله عليه وسلم - أن يوصل معانيه عبر هذه الأساليب إلى مخاطبيه في أجمل تعبير, وأبهى صورة, مما كان لهذه الخطب تأثيراً عميقاً في نفوس سامعيها, وذلك من خلال التحليل الفني الرفيع للأساليب البلاغية في خطابه صلى الله عليه وسلم, وقد خرجت هذه الدراسة بعدد من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

1. اشتملت خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - على صور بيانية رائعة مستمدة من معين الإسلام الصافي, وصور أخرى مستمدة من جوانب الحياة المختلفة.
2. ساهمت خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - في معالجة كثير من قضايا المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.
3. استخدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسائل التصوير الفني, وبخاصة الصور الحسية في التعبير عن المعاني التي يريد إيصالها للناس.
4. أدت الصور الفنية في خطابة النبي - صلى الله عليه وسلم - وظائفها المطلوبة عن طريق الإيحاء, والتشخيص, والمبالغة وغير ذلك.

5. كان لأساليب البلاغة المختلفة في خطابة النبي - صلى الله عليه وسلم - الأثر الكبير في إيصال المعاني إلى نفوس المخاطبين في أيسر طريقة, وأبسط صورة. وفي الختام لا يسعنا إلا أن نشكر الله تعالى على مدده وعونه على أن أتم هذه الدراسة وفق خطتها ومنهجها الذي أعد لها, فله الحمد والمئة.

المصادر والمراجع

1. الأمدي: أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحر الطائي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المسيرة، سنة الطبعه-1944م.
2. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الطبعة : الرابعة، تاريخ النشر 1983، الناشر : دار الثقافة، عنوان الناشر : بيروت - لبنان.
3. أرسطو: الخطابة، تعريب إبراهيم سلامة. القاهرة سنة 195م.
4. الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تحقيق درويش تجويدي - المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية سنة 1421 هـ. 200م.
5. الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
6. ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001م.

7. أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
8. الحوفي: أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة. الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي (بدون تاريخ).
9. صفوت: أحمد زكي، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الناشر: المكتبة العلمية بيروت-لبنان.
10. ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم: العقد الفريد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 14.4هـ.
11. العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
12. العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الصناعتين، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، عام النشر: 1419هـ.
13. علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، تحقيق وتقديم: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، سنة 1417هـ.
14. الفارس: عبد الله بن إبراهيم: مقومات الخطابة الدينية وخصائصها، بحث ماجستير: إشراف الدكتور سعد محمد أحمد. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 14.3هـ - 14.4هـ.
15. الفيومي: (أحمد بن محمد بن علي)، المصباح المنير، ت: عبد العظيم الشناوي، طبعة دار المعارف بمصر سنة 1977م.
16. مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، مصر، سنة 1347هـ، دار الفكر.

17. الواعي: توفيق الواعي، الخطابة وإعداد الخطيب, دار اليقين، مصر، الطبعة الثانية , سنة 1417هـ - 1996م.
18. ابن منظور : ابو الفضل محمد بن مكرم بن على ، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، ط3 ، سنة 1414هـ - 1994م.
19. الخطيب محمد خليل:خطب الرسول،ص.200